تقوية المعنى بالقصر في
ديوان السيِّد مهدي بن داوود الحِلِّيّ (ت١٢٨٩هـ)

أ.د. صباح عطيوي عبود
جامعة بابل/كلية التربية للعلوم الإنسانيَّة

The Reinforcement of Meaning via Qasr (Restriction) in the Collected Works of Sayyid Mahdi bin Dawud Al-Hilli (D. 1289 A.H)

Prof. Dr. Sabah Atiyyah Aboud
University of Babylon/College of Education for Humanities

ملخَّص البحث

الخطـاب الشـعريّ كلام بالنَّظم والإيقاع موجَّه إلى الآخـر، قصد الإبلاغ والتأثير فيه. ولا بدَّ للشاعر أن يستعمل فنونًا كلاميَّة تجعل كلامه مناسبًا لما يقول.

والشـاعر مهـدي بـن داوود الحِلِّيّ خصَّـص الجـزء الأوَّل من ديوانـه لأهل بيت النبوَّة عليهم السلام مدحًا ورثاءً ودفاعًا عن حقِّهم، وقد شـاع فيه أسـلوب القصر، وهو فن من فنون التوكيد المتنوِّعة التي يطلقها المتكلِّم لتقوية عباراته؛ قصد التأثير في المتلقِّي.

وهذا البحـث محاولة لعرض هذه الفنون البلاغيَّة والنحويَّة التي حواها أسـلوب القصر في شـعره، فكان القصر بالاسـتثناء المفرَّغ، والقصر بإنَّـما، والقصر بأل، والقصر بتقديم ما حقُّه التأخير، والقصر بالعطف.

الكلمات المفتاحيَّة: القصر، الخطاب، مهدي بن داوود الحِلِّيّ.

Abstract

Poetic discourse is speech structured with rhythm and meter, directed at an audience with the intention of conveying a message and influencing them. A poet must employ rhetorical devices to make their words suitable for what they're expressing.

The poet Mahdi bin Dawud Al-Hilli dedicated the first part of his diwan (collected poems) to the Household of the Prophet (Ahl al-Bayt): praising them, elegizing them, and defending their rights. The style of restriction (Qasr) was prevalent in this part; it's one of various emphatic rhetorical devices used by a speaker to strengthen their expressions and influence the recipient.

This research is an attempt to present the rhetorical and grammatical devices encompassed by the style of restriction (Qasr) in his poetry. These include restriction by incomplete exception (istithna' al-mufarragh), restriction by innama, restriction by al, restriction by advancing what should be delayed, and restriction by conjunction.

Keywords: Restriction, Discourse, Mahdi bin Dawud Al-Hilli.

الخطاب والشعر

ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ الكلام لا يجري على نسقٍ واحدٍ، أو نمطٍ خاصٍّ، إنَّما «يجري على ضرب، فمنه ما يكون في الأصل لنفسه، ومنه ما يكنَّى عنه بغيره، ومنه ما يقع مثلًا»[١]، بل هو في تكوينه الداخلي متألِّف من أنساق متضافرة، الغرض منها إقامة بنية النصِّ الداخليَّة والخارجيَّة، وبناؤها بصورة تحقِّق مراد المتكلِّم، وقد ذهب سيبويه إلى أنَّ «أوَّل الكلام أبدًا النداء، إلَّا أن تدعه استغناء بإقبال المخاطب عليك، فهو أوَّل كلام لك، به تعطف المتكلِّم عليك»[٢].

وهذا يعني أنَّ الكلام لا يمكن إلَّا أن يكون خطابًا لآخر، لذلك جعل رتبته الأولى في الكلام؛ لأنَّ القصد منه إبلاغ مخاطب قصدًا معيَّنًا، يفهمه ويعنيه، وليس متَّجهًا قول بعض «فلا أرى أنَّ ما قاله سيبويه يصحُّ باطراد»[٣]، إذ لا يمكن إطلاق كلام من غير مخاطب، حتَّى وإن كان غائبًا؛ لأنَّه معني بالخطاب ومقصود.

والكلام أداة اللغة للتواصل بين بني البشر؛ لأداء الوظيفة الإفهاميَّة التي تعدُّ من أهمِّ وظائف اللغة[٤]، لذلك فالنصُّ اللغويّ لا بدَّ من أن يحمل خطابًا ضمن النسيج اللغويّ، محمَّلًا بالدلالة التي يريد المتكلِّم إرسالها أو

(١) الكامل في اللغة والأدب: ٢/ ٤٦٠.
(٢) كتاب سيبويه: ٢/ ٢٠٨.
(٣) الجملة العربيَّة والمعنى: ٢٩٥.
(٤) ينظر: قضايا الشعريَّة: ٢٧.

بثّها للآخرين، فالنصُّ «هو مجموع البنيات النسقيَّة التي تضمن الخطاب وتستوعبه»[١]، فالخطاب هو الصياغة الشكليَّة للكلام ببنى تستمدُّ عناصرها من اللغة التي يستعملها المخاطب.

والفنُّ الشعريّ الذي ينساق فيه الخطاب نظمًا، يشتمل على فنون كلاميَّة تؤدي وظيفتها، من جهة «أنَّ الشعراء أمراء الكلام، يصرِّفونه أنَّى شاؤوا، وجائز لهم ما لا يجوز لغيرهم»[٢].

في حدود ما تسعه أنظمة اللغة ومرونتها التي منها يستمدُّ حركة نظمه، لا أن يخرج متمرِّدًا على قانونها الصارم التي قعَّدت فيه القواعد، وأصبحت ثابتة لا تتغيَّر. إن جوهر الخطاب الشعري قائم على أمرَين مهمَّين، هما:

ذاتية الشاعر، وتفاعل المخاطب مع الخطاب بالأداة الموصِلة بينهما، وهي اللغة، «واللغة بالنسبة للشاعر هي المادَّة الأوَّليَّة التي يعصر منها كلُّ أنواع العصارات؛ فتكشف اللغة عن جميع إمكانيَّاتها»[٣] وفنونها الذاتيَّة التي يسخِّرها الشاعر على شكل أنساق داخليَّة تتضمَّن ما يميِّز هذه الأنساق عن غيرها، فتظهر الأساليب اللغويَّة التي يعبِّر بها الشاعر، كالأمر والنهي والاستفهام والإخبار والتعجُّب، وغير ذلك ممَّا يقصده الشاعر قصدًا كاملًا.

شاعرنا والتوكيد بالقصر

قد يقصد الشاعر إلى أن ينسج كلامه بفنون شكليَّة تناسب مراده، فيستعمل من

(١) خطاب الرفض: ١٣.
(٢) زهر الآداب: ٣/ ٦٨٧.
(٣) لغة الشعر عند الجوهريّ: ١٤٨.

التوكيد مثلًا وسائله التي تكسب كلامه الأثر المقصود الذي يرى أن هذا الموضع موضع قـوَّة وتوكيد يسـتحق أن يبرز فيه ويظهـر ، والتوكيد «يقوِّي به المتكلِّـم عبارته؛ لتوثيق كلامـه، ودفع أدنى صور الارتياب فيه؛ لترسـيخ دلالته وصدقـه»[١]، بل إنَّ المتكلِّم قد لا يكتفي بمؤكِّد واحد، إنَّما يتكلم بحسب حاجته إلى ما يؤكِّد كلامه، لذلك قد نجد في الـكلام أكثر من مؤكِّد، «فتقـول إنِّي صادق لمن ينكر صدقك، ولا يبالغ في إنكاره، وإنِّي لصـادق لمن يبالـغ في إنكاره»[٢]، وتقـول والله إنِّي لصادق، فتزيد بالقَسَـم، وهو توكيد ما أكَّدته سابقًا.

و في ديـوان الشـاعر السـيِّد مهدي بـن داوود الحِلِّيّ، شـاع أسـلوب القصر، وهو نمط مـن أنماط توكيد الكلام وتقويتـه، وقد ذهب العلماء إلى أنَّه أقـوى أنماط التوكيد، قـال د. مهـدي المخزوميّ: «إنَّ التوكيد بالقصر أقوى طرائـق التوكيد وأدَّلها على تثبيت مـا يُراد تثبيته أو تقديره»[٣]، وكأنَّ الشـاعر أراد من اسـتعماله أن يؤكِّد أحقيَّة أهل بيت النبـوَّة عليهم السلام، ويُظهِـر مـا جرى عليهم مـن مآسٍ تُدمـي القلوب، ولاسـيما أنَّ ديوانه في جزئـه الأوَّل «يخصُّ أهل بيـت النبوَّة (عليهم صلوات الله وسـلامه) مدحًا ورثاءً»[٤]، فاسـتعمل أنواعًا كثيرة من التوكيد، كالتوكيد بالحـرف الزائد، والتوكيد بالنون الخفيفة والثقيلة، والتوكيد بالقَسَم، والتوكيد بالحرف المشبَّه بالفعل، والتوكيد بتكرار الكلمة أو المقطع الشـعريّ، والتوكيد بالمصدر، غير أنَّ اللافت للنظر في شعره أنَّ الشاعر أكثرَ من أسلوب القصر بفنونه المتعدِّدة.

(١) معطيات التوكيد: ١.
(٢) معاني النحو: ٤/ ٥١١.
(٣) النحو العربّي قواعد وتطبيق: ٢١٠.
(٤) ديوانه: مقدِّمة التحقيق: ٣٨.

فنون التوكيد بالقصر عنده

القصر بالاستثناء المفرَّغ:

إذا كان القصر في اللغة يعني الحبس، فإنَّه في الاصطلاح يعني تخصيص شيء بشيء، وحصره فيه، فلا يدخل فيه غيره[١]، والاستثناء المفرَّغ صورة من صور توكيد الكلام والمبالغة في الحكم؛ لأنَّه يخصِّص الحكم بالمذكور في الكلام، وينفيه عن سواه[٢].

وإنَّما سمِّي مفرَّغًا؛ لأنَّه من المستثنى منه، ويرى الرضيّ أنَّ «المفرَّغ في الحقيقة هو الفعل قبل إلَّا؛ لأنَّه لم يشغل بمستثنى منه، فعمل في المستثنى»[٣]، وهذا هو الأصل في تفريقه.

أمَّا الأصل في الاستثناء، فأن يذكر المستثنى منه، ثمَّ تستثني منه ما بعد إلَّا، لذلك جعل د. فاضل السامرَّائيّ الاستثناء كلَّه يفيد الاختصاص، وليس الأمر مقصورًا على ما هو مفرَّغ، لكنَّه في الاستثناء المفرَّغ أعمُّ وأشمل من غيره من أنواع الاستثناء[٤]، قال ابن يعيش عنه «وحقيقته تخصيص صفة عامَّة، فكلُّ استثناءٍ تخصيص»[٥]، والاستثناء المفرَّغ لا يكون إلَّا في غير الموجب، إنَّما كان كذلك «لأنَّك إذا قلت جاءني زيد، فقد يجوز أن يكون معه غيره، فإذا قلت ما جاءني إلَّا زيد، نفيت المجيء كلُّه إلَّا منه»[٦].

إنَّ أهمَّ سمة للقصر بالاستثناء المفرَّغ استعماله لما ينكره المخاطب، وناسبه ذلك؛

(١) ينظر: التعريفات: ١٧٦.
(٢) ينظر: جواهر البلاغة: ١٧٩.
(٣) شرح الرضيّ على كافية ابن الحاجب: ٢/ ١٣٣.
(٤) ينظر معاني النحو: ٢/ ٦٧٩.
(٥) شرح المفصَّل: ٢/ ٧٦.
(٦) معاني النحو: ٤/ ٣٨٩.

لقوَّة الاستثناء للتصريح بالنفي والاستثناء، وهذا أقوى في التأكيد، لذلك كان استعماله مناسبًا لردِّ شديد الإنكار حقيقةً أو ادِّعاءً[١]. وبسبب ذلك سمَّى الهرويّ مواضعه تحقيقًا إيجابًا[٢].

إنَّ قوَّة التأكيد في الاستثناء المفرَّغ ناسبت شيوعه في شعر السيِّد مهدي الحِلِّيّ، «إذ إنَّ جملة القصر في مقام جملَتَين، فقولك ما كامل إلَّا الله تعادل قولك: الكمال لله، وليس كاملًا غيره»[٣].

لقد تنوَّع القصر بالاستثناء المفرَّغ في شعر السيِّد مهدي الحِلِّيّ، وعلى ما يأتي:

١. ما النافية وإلَّا الاستثنائية التي يسمِّيها النُّحاة أداة حصر:

وقد تعدَّدت صورها في شعره، وتنوَّع التركيب بين جمل فعليَّة وأخرى اسميَّة، وعلى ما يأتي:

- **ما الداخلة على جملة اسميَّة، كقوله**[٤]:

مـا هـي إلَّا الـشـمْـسُ في مَـدْحِـكُـمْ
لـكـنْ عـن الأَبْـصـارِ لا تُحْـجَـبُ

- **ما الداخلة على جملة فعليَّة فعلها مبنيّ للمعلوم، كقوله**[٥]:

مـا رامَ في عَـزْمـتـهِ
إلَّا بهـا يـأخُـذُ مـا يَـطْـلُـبُ

(١) ينظر: جواهر البلاغة: ١٨١.
(٢) ينظر: كتاب الأزهية في علوم الحروف: ١٨٣.
(٣) جواهر البلاغة: ١٨٧.
(٤) الديوان: ١/ ٢٣٢.
(٥) نفسه: ١/ ٢٢٨.

- ما الداخلة على جملة فعليَّة فعلها متعدٍّ لمفعولَين، كقوله[١]:

إن لَـــذَّاتـــهِ عـــــذابٌ ولـكـنْ
مـــا تـــراهـــا في الحـــشر إلَّا عـذابـا

- ما الداخلة على جملة فعليَّة فعلها مبنيّ للمجهول، كقوله[٢]:

مـــا خُـوطـبـتْ إلَّا رَأوا لِـسـانَهـا
أَفْـــضى مـن الـصَّـمـصَـامِ في خـطـابـهِ

- ما الداخلة على جملة فعليَّة، والمستثنى حال جملة فعليَّة، كقوله[٣]:

ومـــا ضَربَ الجَـحْـفـلَ إلَّا وأتـى
غِـــــــرارَهُ المـــــاضي عـــلى رقـــابـــهِ

- وقد يكون الحال جملة اسميَّة، كقوله[٤]:

مـا هَمَـــزْتَ الجـــوادَ إلَّا ومـنـك الـ
ـحَتْفُ وقَـدْ حـاقَ بـالـعدى والـبَطْشُ

- ما وإلَّا الداخلة على الجار والمجرور، كقوله[٥]:

مـــا خـــرَّ مـيّـتًـا إلَّا بـسَـطْـوَتِـهِ
تخـيّـلَ الـــشَّـــوْسُ لـلـسَّـما كَـشَـطـا

(١) ديوانه: ١/ ١٩٣.
(٢) نفسه: ١/ ٢١٦.
(٣) نفسه: ١/ ٢١٤.
(٤) نفسه: ١/ ٢٩٥.
(٥) نفسه: ١/ ٢٠٤. والشوس جمع الأشوس، وهو الجريء على القتال الشديد. لسان العرب، شوس: ٦/ ١١٦.

- وقد يزيد في الاستثناء المفرَّغ توكيدًا آخر يعضده ويقوِّيه؛ لأنَّ المقام يتطلَّب ذلك، فقال مثلا[1]:

مـــا إنْ دهـــاهـــا حـــــادِثٌ
إلَّا وكـــــان لهـــا مِـــجَـــنَّـــا

فزاد (إنْ) بعد ما توكيدًا للمعنى.

- وقد يعضد ذلك بتقديم ما حقُّه التأخير، وهذا من مواطن التوكيد أيضًا، كقوله[2]:

فـــما ذاكَ إلَّا في الـــبريَّـــةِ آيَـــةٌ
لـبـاريـهِ في إظـهـارِ مُـعْـجِـزِهـا سِـــرُّ

والأصل: ما ذاك إلَّا آيةٌ لباريه في البريَّة.

- وقد تطول عبارة الاستثناء، فنجد أداة الاستثناء بعد (ما) ببيتَين، كقوله[3]:

ومـــا جَـــرَّ رايـــــاتِ الـكـفـا
حِ عَـلـيْـهِـمُ في (الـغـاضريَّـةْ)
وسَـــقَـــى الـــــرّدى أشرافَـــهـــا
قَـــــسْرًا بـبـيْـضِ المَـشْرِفـيَّـةْ

- وقد تكون أداة الاستثناء (غير)، كقوله[4]:

مـــا إنْ لَـــهُ غَـــيْرُ الـــوحُـــوشِ
بـقـطْـعِـهِ الـبَـيْـداءَ صـحْـبُ

(١) ديوانه: ١/ ٣٦٤.
(٢) نفسه: ١/ ٢٨٥.
(٣) نفسه: ١/ ٣٧٢.
(٤) نفسه: ١/ ١٨٨.

٢. لم مع أداة الاستثناء:

وقد تنوَّعت صورها في شعره، على ما يأتي:

- **لم مع إلَّا وبعدها المفعول به، ومن ذلك قوله**(١):

وقّـدْ طـال عُـسـري وَلَـمْ أبْـصِـرَنْ

مَـعَ الـعُـسْـر إلَّا وَحَـقِّـكَ عُـسْـرا

والملاحَظ أنَّ الشاعر استعمل في كلامه هذا أكثر من توكيد، فما استعمل (قد) داخلة على الفعل الماضي (طال)، وقد أفادت تحقيق الحدث، وأكَّد الفعل (أُبْصِرُ) بالنون الخفيفة التي وظيفتها الأساسيَّة التوكيد، ثمَّ فصل بين (إلَّا) والمفعول به بالقسم، والقسم توكيد آخر للمعنى.

ولا شكَّ في أنَّ المقام يتطلَّب ذلك، ولاسيما أنَّه يخاطب ربَّه متوسِّلًا بالنبيِّ لكي بناله اليُسر لا العسر.

- **وقد يكون بعد (إلَّا) جملة الحال فعليَّة، فضلًا عن تقديم ما حقّه التأخير، كقوله**(٢):

لَـمْ يَـمُـتْ مَـنْ والاهُـمُ فـيـهِ إلا

ولأَبْـنـاهُ وَرَّث الإكْـتِـئـابـا

فقد زاد في التوكيد بتقديم الجار والمجرور على عامله (ورَّث)، والأصل: ورَّث لأبناه.

- **لم مع إلَّا وبعدها الجار والمجرور، كقوله**(٣):

(١) ديوانه: ١/ ٢٨٦.

(٢) نفسه: ١/ ٢٠١.

(٣) نفسه: ١/ ١٩٨. والتهويم: النوم، وحلّ العقال: إطلاق الناقة للسير، والتعريس: النزول من السفر للاستراحة آخر الليل، وثاب: أي: انتبه. ينظر ها من الديوان الثالث: ١/ ١٩٨.

لَمْ يُهَـــوِّمْ إلّا كَـحَـلِّ عِـقـالِ

حـــينَ تـعـريـسـهِ ولِـلـسَّـبْرِ ثـابـا

- لم الداخلة على المضارع الناقص (يكن) و إلّا داخلة على اسمها متأخرًا، كقوله: [1]

مـاضِي المـضـاربِ في الـقِـراع ولم يَكُـنْ

أمْـض لَـعَـمْـرُك مِـنْـهُ إلَّا الـضـاربُ

والملاحظ أنه زاد في التوكيد، فزاد القسم (لعمرك) وهو جملة فيها الخبر محذوف تقديره قسمي.

- وقد تكون أداة الاستثناء (سوى)، كقوله: [2]

مُـفْـتَرِشًـا جِـسْـمُـهُ الـثَّـرى لَمْ

يَجِـدْ سِـوى الـنَّـبْـلِ مِـنْ غِـطـاءِ.

٣. (لا) النافية مع أداة الاستثناء:

وقد تنوعت صورها أيضًا في شعره، فكانت على ما يأتي:

- داخلة على جملة اسميَّة كقوله[3]:

لا هـــائِـــبٌ وَمُحـــــــارِبٌ

إلّا حَـــــوْبـــاهُ نَهْـــبُ

- داخلة على جملة فعلية، كقوله: [4]

(١) ديوانه: ٢٣٤.

(٢) نفسه: ١/ ١٧٧.

(٣) نفسه: ١/ ١٨٦. والحوب: النفس، لسان العرب (حوب): ١/ ٢٤٠.

(٤) ديوانه: ١/ ٢٣٦.

فَـرَأَيْـتَ لا تَـنـتـاشُـهُ مِـنْ هَـوْلِـهـا
إِلَّا بِـمـا هُـو لِـلـنَّـقـيـبـةِ سَـالـبُ

- داخلة على جملة فعليَّة وأداة الاستثناء (سوى)، كقوله[1]:

بِـطَـعـنِـهِ يَـفْـنـي الجُـسُـوْمَ حـيـثُ لا
تَـرى مِـنَ الـدِّمـا سِـوى خِـضـابِـهِ

- داخلة على جملة فعلية فعلها مبني للمجهول وأداة الاستثناء (غير)، كقوله[2]:

وَعَـلا في هَـيـاجِـهِـمْ لَـيْـلُ نَـقْـعٍ
لا يُـرى فـيـهِ غَـيْـرُ وَمْـضِ الحِـدادِ

٤. أداة النفي الفعل (ليس) وأداة الاستثناء (إلَّا):

وذلك كقوله[3]:

لَـيْـسَ يَـرْضى تَـظِـلُّـهُ بَـعْـدَ ظَـهْـرِ الـ
ـعـزِّ إِلَّا الهِـنْـديـةُ المُـرْهَـفـاتُ

القصر بـ(إنَّما):

يختلف القصر بـ(إنَّما) عن القصر بالاستثناء المفرَّغ، إذ إن إنَّما تستعمل في أمر لا ينكره المخاطب، أمَّا القصر بالنفي والاستثناء، فيستعمل في أمر ينكره المخاطَب ويشكُّ فيه، لذلك فإنَّ إنَّما تؤكِّد خبرًا أردت منه تنبيه المخاطب، قال الجرجانيّ: «إنَّ موضوع (إنَّما) على أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطب، ولا يدفع صحَّته، أو لما ينزل هذه المنزلة، تفسير ذلك أنَّك تقول للرجل: إنَّما هو أخوك، وإنَّما هو صاحبك القديم،

(١) ديوانه: ١/ ٢١٤.
(٢) نفسه: ١/ ٢٧١.
(٣) نفسه: ١/ ٢٣٨.

لا تقوله لمن يجهل ويدفع صحَّته، ولكن لمن يعلمه ويقرُّ به، إلَّا أنَّك تريد أن تنبهه الذي يجب عليه من حقِّ الأخ، وحُرمة الصاحب»[1]، وجاء التوكيد فيها من النفي والإثبات في دلالتها، فاذا قلت: إنَّما يفعل هذا أنا، وإن لم يكن للنفي والإثبات لم يصحّ ذلك، لأنَّك تقول: أفعل هذا، ولا تقول: يفعل هذا أنا، وإنَّما بمنزلة النفي وإلَّا، فكأنَّك قلت ما يفعل هذا إلَّا أنا[2].

ومن مواضع استعمالها في القصر عند السيِّد مهدي الحِلِّيّ قوله في رثاء الامام الحسين عليه السلام[3]:

وإِنَّما يُتْمُكُم لَبَادٍ
مِنْكُمْ الأَوْجِدِ الوضَّاءِ

وقال أيضًا[4]:

فإِنما سَلْطَنَةُ الحَشْرِ في
أَكُفِّكُمْ زِمامُها يُجْذَبُ

القصر بـ(ال):

تستعمل (ال) في الدلالة على القصر مبالغةً في المعنى وتوكيدًا له، حقيقةً أو مجازًا، فمن الحقيقة قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (النساء: ١٣)، أي ذلك الفوز الذي لا فوز بعده، ومن المجاز قولنا: المتنبِّي وأبو تمّام حكيمان، والشاعر البحتريّ، «فقد قصرت الشعر على البحتريّ، فكأنَّ ما عداه ليس بشاعر»[5].

(١) دلائل الإعجاز: ٢١٨.
(٢) ينظر: معاني النحو: ١/ ٥٦٠.
(٣) ديوانه: ١/ ١٨٠.
(٤) ديوانه: ١/ ٢٣٢.
(٥) القول الفصل في حقيقة ال: ٢٠٩.

ومن استعمال الشاعر لذلك قوله يرثي الإمام الحسين عليه السلام[١]:

في ثُـلَّـةٍ مِـنْ آلِ (عَـدْ
نـانٍ) ذَوي الـشَّـرَفِ المُـنيـفِ
الـشَّـامِخِـينَ عـلى عُـتـا
ةِ الـشِّـرْكِ في شُـمِّ الأُنـوفِ
والخـافِـضِـينَ جَـنـاحَـهُـمْ
لِـلْـمُـؤمِـنِ الـعـافي الـضَّـعـيـفِ
والـضَّـارِبـيـنَ عـلى الـطَّـريـ
ـقِ قِـبـابَهُـمْ لـقِـرى الـضَـيـوفِ

القصر بتقديم ما حقُّه التأخير:

يتركب الكلام بمراتب معيَّنة في أصلها، بعد أن يتعلَّق بعضه ببعض، وتكون هذه المراتب محفوظة وغير محفوظة، وهي جميعهًا قائمة على موقعها في ترتيب الكلام[٢]، فالأصل في الجملة التي مسندها فعل أن يتقدَّم على المسند إليه، فإن تقدَّم المسند إليه، خرج عن أصل موقعه لغرض معيَّن، والأصل في الجملة التي مسندها اسم أن يتقدَّم المسند إليه على المسند، فإن تقدَّم المسند خرج عن أصله لغرض معيَّن أيضًا[٣]، والمقصود من التقديم ما كان جائزًا لا واجبًا، وأهل البلاغة يرون أنَّ الغرض من ذلك كلِّه هو القصر، إن «كل أجزاء التركيب أو الجملة تقدَّم على موضعه الطبيعيّ الاعتياديّ، يكون أحيط بالعناية والاهتمام، ويكون غاية في الذِّكر من بين أجزاء تلك الجملة، يُلفت إليه

(١) ديوانه: ١/ ٣١٧.
(٢) ينظر: اللغة العربيَّة معناها ومبناها: ٢٠٨.
(٣) ينظر: معاني النحو: ١/ ١٦١.

النظر، ويمعن فيه الفكر»[١]، لذلك فإنَّ السيوطيّ يذكر أنَّ: «أهل البيان يطبِّقون على أن تقديم المعمول يفيد الحصر، سواء كان مفعولًا أو ظرفًا أو مجرورًا»[٢]، وقد تقدَّم أنَّ القصر لم يكن إلَّا لتوكيد الكلام والمبالغة في معناه، وقد ناسب ذلك غرض السيِّد مهدي الحِلِّيّ الذي يجعل من التقديم والتأخير أداةً للتأكيد والمبالغة في إطلاق المعاني، ولاسيما أنَّه معني في أهل بيت النبوَّة عليهم السلام، وعرض مكانتهم وأحقيَّتهم، وما آلت إليه حالهم، لذلك تنوَّعت عنده أساليب تقديم ما حقُّه التأخير، وعلى الوجه الآتي:

١. تقديم الخبر على المبتدأ:

الأصل في الجملة الاسميَّة أن تكون رتبة المبتدأ قبل الخبر، ويمكن أن يتأخَّر المبتدأ وتقدم الخبر، وفي هذا خروج عن الأصل، ولا يكون هذا الخروج إلَّا لغرض بلاغيّ مقصود، ففي قولنا: «قائم زيد، فإنَّك تفيد بتقديمه أنَّه مختصٌّ بهذه الصفة من سائر صفاته»[٣].

وقد يكون الخبر شبه جملة، فإن كان كذلك، «فإنَّ أهمَّ غرض من أغراض تقديم الظرف هو الاختصاص والحصر»[٤].

وقد جاء من ذلك في ديوان السيِّد مهدي الحِلِّيّ عند قوله في الرثاء[٥]:

وهَتَكوا حُجْبَها فَأَمْسَتْ
مِنْ حُجُبِ اللهِ في غِطاءِ

(١) معطيات التوكيد: ٨.
(٢) الاتقان في علوم القرآن: ٢/ ٥١.
(٣) الطراز: ٢/ ٦٨.
(٤) معاني النحو: ١/ ١٦٦.
(٥) ديوانه: ١/ ١٧٨.

وحَــوْلَــــهــا صِــبْــيَــةٌ صِــغــارٌ

لَـــمْ تــــدرِ مــا رَنَّـــةُ الــعَــزاءِ

فقـدَّم الخبر (حولها) على المبتـدأ (صبية)، وهو تقديم جائز لوصـف المبتدأ النكرة والغرض من التقديم القصر والاهتمام.

وقد يتقدَّم الخبر والفعل من الأفعال الناقصة، كقوله[١]:

ولا مِـــنْ حَـدائِـجِـهـا مِـنْـبَرًا

بِـــهِ لِـنَـبِـيِّـهـم صَـيَّـــرتْ

٢. تقديم المفعول به:

الأصـل في رتبة المفعـول به أن تكون بعد الفعل والفاعل، قـال الرضيّ: «إنَّ مرتبة المفعـول بعـد الفاعل»[٢]، وقد خـرج عن هذا الأصـل، فيقدِّم المفعول بـه على الفعل، فيكون الاختصاص والحصر أهم الأغراض التي يخرج تقديمه إليها.

وقد جاء من ذلك في قول السيِّد[٣]:

أَلَـــقِ الـــرِّسَـــالَـــةَ فُـــجْـــأَةً

والـــعَـــيْنُ مِـــنْـــكَ دَمًـــا تَـصُـبُّ

وقـد يتقدَّم المفعـول على فاعله دون فعله، وعند ذلك يكـون الموطن موطن اهتمام وعنايـة به أكثر مـن العنايـة بالفاعل، «وكأنَّهـم يقدِّمون الـذي بيانه أهم، وهـم ببيانه أعنى»[٤]، ومن ذلك قول السيِّد[٥]:

(١) ديوانه: ١/ ٢٥٦.

(٢) شرح الرضيّ: ١/ ٢٠٤.

(٣) ديوانه: ١/ ١٨٩.

(٤) كتاب سيبويه: ١/ ١٤.

(٥) ديوانه: ١/ ١٤٤. والوكاء: ما يشدُّ به الكيس وغيره. لسان العرب، وكأ: ١/ ٢٠٠.

وتَــسْــكُــبُ الــدَّمْــعَ فُــقْــلــتــاهُ
عَــــنْ فــــمِ مَحْــلُــوْلــةِ الــوِكــاءِ

وقد يكون التقديم من باب الاشتغال، وقد «ذهب البيانيُّون إلى أنَّ الاشتغال قد يفيد تحقيقًا وتوكيدًا»[1]، وما ورد من ذلك في ديوانه قوله[2]:

بَـنـى سَـمًا مِـنْ قَـتَـامِـهـا وَمِـنْ الـ
أَجْـسـامِ أَرْضًـا بِـعَـضْـبِـهِ بَسَطا

٣. تقديم الجارِّ والمجرور والظرف:

إذا تقدَّم الجار والمجرور على عامله، «أفاد الحصر والاختصار، وهو أشهر الأغراض وأكثرها دورانًا، حتَّى حصر بعضهم التقديم بهذا الغرض»[3]، ففي قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ (الشورى: ٥٣)، «المعنى أنَّ الله تعالى مختصٌّ بصيرورة الأمور إليه دون غيره»[4].

وقد ورد من ذلك في ديوان السيد الكثير، منه قوله[5]:

بِـيَـوْمٍ عَـلى المَـوْتِ قَـدْ وَطَّـنَـتْ
نُـفُـوْسَـهُـم وَسَـئِـمْـنَ الـبَـقـاءَ

وقد تقدَّم الجار والمجرور على عامله (وطَّنت).

ومن تقديم الظرف قوله[6]:

(١) معاني النحو: ١/ ٥٥٢.
(٢) ديوانه: ١/ ٣٠٤.
(٣) معاني النحو: ٣/ ١٠١.
(٤) الطراز: ٢/ ٧٠.
(٥) ديوانه: ١/ ١٧٢.
(٦) نفسه: ١/ ٢١٢.

أَمـامـهـا رُفِـعَـتْ فـوقَ الأَسِـنَّـةِ مِـنْ
خُماتِها أَرْؤسٌ فاقت سَنا الشُّهُبِ

٤. تقديم الحال:

رتبة الحال تكون بأن يتقدَّم الفعل، ثمَّ صاحب الحال، ثمَّ الحال، فإن تقدَّم الحال؛ خرج ذلك عن أصل رتبته، وذلك لا يكون إلَّا لغرض يقصده المتكلِّم، والغالب في ذلك أن يكون للقصر[١]، ومن هذا التقديم قول السيِّد مهدي الحِلِّيّ[٢]:

خَطيبًا رَقى مِنْبَرًا واعِظًا
فَأَعْجَزَ في وَعْظِهِ الخُطَباءَ

٥. تقديم المفعول لأجله:

يمكن أن يتقدَّم المفعول لأجله، ويكون في ذلك قصر وتوكيد في المعنى، فتقول: ضربته تأديبًا له، وهذا هو أصل الترتيب الكلاميّ، فإن قلنا: تأديبًا ضربته، حصرنا الضرب للتأديب لا لغيره، وممَّا جاء فيه المفعول لأجله مقدَّمًا عند السيِّد الشاعر قوله[٣]:

فيا نُفُوسَ الأَنامِ حُزْنًا
سِيلي مَعَ الدَّمعِ في البُكاءِ

تقديم الفاعل على فعله:

الأصل أن يتقدَّم الفعل ويتأخَّر فاعله، فإن تقدَّم؛ فقد خرج عن الأصل، وعدَّ من باب الابتداء؛ لأنَّ «الفاعل لا يتقدَّم على الفعل»[٤]، ولا يخرج عن الأصل إلَّا لغرض،

(١) ينظر: معاني النحو: ٢/ ٧٢٧.
(٢) ديوانه: ١/ ١٧٤.
(٣) نفسه: ١/ ١٨٠.
(٤) شرح الرضيّ: ١/ ٣٠٣.

ومن أغـراض هذا التقديـم التخصيص والقـصر، فنقول: محمَّد أقبـل، والأصل أقبل محمَّد، غير أنَّنا قدَمنا محمَّدًا؛ لنقصر عليه الإقبال دون غيره، ومن أمثلة ذلك عند السـيِّد في ديوانه، قوله في ثلاثة أبيات متتالية[1]:

فـيـهِ الخَـطْـبُ تَـفـاقـم حَـتـى
جَـلَّ قَـدْرًا أَنْ يُـقـالَ جَـلـيـلُ
وَبـهِ الأمـلاكُ جـاءَتْـكَ تسْعى
وَمِـنَ الجِـنِّ أَتـاكَ قَـبـيْـلُ
وَعَـلـيْـكَ الـنَّـصـرُ رَفْـرَفَ لـما
جـاءَ فـيـه مُـسْـرِعًـا (جِـبْرِيْـلُ)

القصر بالعطف:

القصر بالعطف يكون أمرَين أو أكثر ، تثبت بعضًا منها، وتنفي بعضًا ، فنقول:

أكرمت زيدًا لا سـعيدًا، قصرنا الإكرام وأثبتناه لمحمَّد دون سـعيد، والمشهور من حروف العطف في القصر لا، وبل، ولكن[2].

وممَّا جاء من ذلك في ديوان السيِّد قوله[3]:

فـيَـحِـقُّ تُـزْهَـقُ فـيـهِ نَـفْـسُـكَ حَـسْـرَةً
لا أنْ تـكـونَ بِـرُزئِـهِ مَـفْـجـوعَـا

إذ نفـى أن يكـون مفجوعًا بفقده وأثبـت ازهاق النفس حسرة عليـه، والملاحَظ أن الشاعر قدم الجار والمجرور (برزئه) على عامله (مفجوعًا) زيادة في التوكيد والقصر.

(١) ديوانه: ١/ ٣٢٨.
(٢) ينظر: جواهر البلاغة: ١٨١.
(٣) ديوانه: ١/ ٣٠٨.

وقال أيضًا[١]:

لَـسـتُ أنـسـى مـنـهُـنَّ تِـربَ الـرَّزايـا
(زيـنـبًـا) بَـلْ خَـدِيْـنَـةَ الأتـراحِ

وقال أيضًا[٢]:

وَلَـمْ يَـكُـنْ للهِ اسـلامُـهُـمْ
لـكـن لِـعَـضْـبٍ يُـنْـشيء المـنـونـا

إذ نفي أن يكون إسلامهم طاعةً لله، وخوفًا منه، وأثبته للخوف من سيفه البتَّار.

(١) نفسه: ١/ ٢٦٦.
(٢) نفسه: ١/ ٣٦٠.

خلاصة البحث

يمكن أن نقول خلاصة قصيرة في هذا البحث، وهي:

- أسلوب التوكيد الذي استعمله الشاعر كان مناسبًا للخطاب العام في شعره، إذ أراد الشاعر أن يؤكِّد أحقيَّة أهل بيت النبوَّة عليهم السلام، والدفاع عنهم، مدحًا ورثاءً، وغير ذلك.
- شاع أسلوب القصر، وهو لون من ألوان التوكيد، بفنون متعدِّدة، كانت على أربعة:

١. القصر بالاستثناء المفرَّغ.

٢. القصر بإنَّما.

٣. القصر بتقديم ما حقُّه التأخير.

٤. القصر بالعطف.

روافد البحث

- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطيّ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبيّ، مصر، ١٣٣٧هـ/ ١٩٥١م.
- التعريفات، السيِّد الشريف الجرجانيّ (ت٨١٦هـ)، دار الكتب العلميَّة، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٣م/ ١٤٢٤هـ.
- الجملة العربيَّة والمعنى، د. فاضل صالح السامرَّائيّ، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد الهاشميّ، المكتبة التجاريَّة الكبرى بمصر، ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م.
- خطاب الرفض، قراءة في سيرة السعبريّ وشعره، د. عبد العظيم رهيف السلطانيّ، دار الصادق الثقافيَّة، ط١، ٢٠١٩م.
- ديوان السيِّد مهدي بن داوود الحِلِّيّ (ت١٢٨٩هـ)، دراسة وتحقيق: د. مضر سلمان الحِلِّيّ، منشورات شركة الأعلميّ للمطبوعات، بيروت، لبنان، ٢٠٠٩.
- زهر الآداب، للحصريّ، تحقيق: زكي مبارك، دار الجيل، بيروت، ط٤، ١٩٧٢م.

- شرح كافية ابن الحاجب، رضي الدين الاسترآباديّ (ت٦٨٦هـ)، قدَّم له ووضع حواشيه وفهارسه: د.أميل بديع يعقوب، دار الكتب العلميَّة، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
- الطراز، يحيى بن حمزة العلويّ، مطبعة المقتطف بمصر، ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م.
- قضايا الشعريَّة، رومان يالوبسن، تحقيق: محمَّد الولي، ومبارك حنُّون، دار توبقال للنشر، ط١، المغرب، ١٩٨٨م.
- القول الفصل في حقيقة (ال)، د. سعدون بن أحمد بن عليّ الربعيّ، دار الأرقم للطباعة، الحِلَّة، ٢٠٠٩م.
- دلائل الإعجاز في علم المعاني، عبد القاهر الجرجانيّ، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- الكامل في اللغة والأدب، أبو العبَّاس المبرِّد، تحقيق: جمعة الحسن، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.
- كتاب الأزهية في علم الحروف، عليّ بن محمَّد الهرويّ، تحقيق: عبد المعين الملوحيّ، دمشق، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.
- كتاب سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت١٨٠هـ) تحقيق: عبد السلام محمَّد هارون، عالم الكتب، ط٣، ١٩٨٣م.
- لسان العرب، ابن منظور جمال الدين محمَّد بن مكرم (ت٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٦٨م.

- لغة الشعر عند الجواهري، د. عليّ ناصر غالب، دار الصادق للطباعة والنشر، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- اللغة العربيَّة معناها ومبناها، د. تمَّام حسَّان، عالم الكتب، ط٣، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- معاني النحو، د. فاضل صالح السامرَّائيّ، مطبعة الحكمة، الموصل، ١٩٩١م.
- معطيات التوكيد الدلاليَّة، دراسة تحليلية في سورة يوسف، د. عليّ عبد الفتَّاح، منجي، مكتب الرياحين للنشر والطبع والتوزيع، الحِلَّة، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.